قصة قصيرة

اليوم.. لاتغرد العصافير

سلوى قدرة
مصر

كان قلبه ينبض بسرعة، يدفع الدم سريعاً في عروقه وهو يتقدم بخطى مترددة وجلة فيجتاز عتبة الباب الخشبي السميك، وقف برهة، تلفت خلفه.. بعض الاطمئنان سرى في عروقه أن لا أحد خلفه، كان كلص يخشى أن يرقبه أحدهم. نظر إلى معالم البيت وفي عينيه اعتذار، لم يترك أثراً من آثار طفولته المتوثبة الصاخبة إلا ومرّ عليه يودعه ويطبعه في الذاكرة حتى لا تمسه أحداث الحياة، هنا أرجوحته حين كان رضيعاً.. في تلك الزاوية هناك مكتبه الذي طالما تنازع ملكيته وإخوته.. على ذلك الجدار ها هي ذي لعبته الأثيرة وفوقها تلك اللوحة "لا إله إلا الله"، وكأنها تنير الغرفة وتضفي عليها شعوراً بالأمان! استدار في حنان، هناك مشجبه الذي حمل من ثيابه ما لا يمكن لغيره أن يتخيله!

اجتاز البهو، تقدم في هدوء إلى حيث تجلس في مكانها الذي عهده.. وراءها تلك النافذة الضيقة التي تجود عليها ببعض النسمات العليلة، وصوت الأذان الذي تنتعش لسماعه روحها القلقة، أمامها تلك الأريكة العنيدة التي طالما جمعتها وزوجها وذلك الوليد الذي غدا اليوم رجلاً متزوجاً يسكن في المدينة ويضم منزله ثلاث زهرات جميلات، بجانبها ذلك المذياع الذي عايشها دهراً وترفض بشدة أن يستبدل به آخر حديثاً! إنها تتلمسه كل حين لتشعر أن أحداً بجانبها سيخاطبها بحنان ورفق حين تهاجمها الوحدة فتفتك بما تبقى من أعصابها.

انفجرت بقبلتها الواهنة تلك قنبلة من الندم من داخله مزقت جوانحه، أحس بروحه توشك أن تتمرد عليه، أن تثور على ما سوف يفعل، وأحست هي بمعركته الحامية فرسمت على وجهها بعض الاطمئنان والرضا وهي تسأله: هل حان الوقت يا ولدي؟

هز رأسه منهزماً كمن ينعى إليها حبيباً فقدته، وقف ليستند إلى جدار قريب.. من بعيد هتف به هاتف غاضب: "يا لك من مجرم، كم أنت بشع!!"

خطا إلى الحقيبة الصغيرة التي تحمل ملامح السنوات الماضية من كد وتعب ومثابرة وعناد.. بدت متهالكة، مهترئة، داكنة، مغبرّة اللون رغم كل ما بُذِل من جهد للعناية بها.. حملها في رفق ووضعها في السيارة المنتظرة، عاد إليها بعد أن عدّل من وضعية المقعد الخلفي ليجلسها جلسة مريحة، حملها بين ذراعيه.. ياإلهي.. كم هي هشة! تكاد أن تتهشم بين ذراعيه القويتين، كانت من الاستسلام والانكسار بحيث أشفق عليها وخاف أن تُسْلِم أنفاسها بين أحضانه!

ماذا حدث لها؟ لم يتخيلها بمثل هذا الضعف، لم تكن أبداً بمثل هذا الوهن الذي هي عليه الآن! ضغطت على ذراعه بقبضتها الواهنة، رجته في استعطاف أن يتمهل بها لحظة.. عادت تستدير بعنقها النافر العروق تتشمم ريح البيت، تستنشق هواءه، تفتح رئتيها على مصراعيها تملؤهما بكل شيء.. وتحتضن بها كل شيء، الرائحة، الأنفاس، الذكريات، الأحلام.. إنها تريد أن تحمل معها كل شيء، لقد كانت دوماً متوحدة مع هذه الجدران وتلك الأبواب وهاتيك النوافذ.. إنها تنتمي إلى كل شيء.. ولطالما قالت في حنان.. هذا المنزل هو ذاتي... إنه حلمي الذي لا زلت أعيشه.

بإصبع مرتعش أشارت إليه، ووجد نفسه دون نقاش يحملها إلى حيث تريد.. رفعت يدها إلى تلك اللوحة على الجدار.. دارت بأصابعها حول الإطار المزيّن..ثم انتقلت بحنان إلى الحروف البارزة تدور بارتعاشة واضحة مع انحناءات الحروف وتتوقف وكأنها تسرع وتخاف أن تتذكر، كيف لا؟ وهذه اللوحة كانت قصتها التي لا تُنسى.. علقها أبوه يوم رفع صوته مزمجراً، رافضاً أن ينصاع لها، حينها قالت له في عتاب ظاهر: كبُرَ الرضيع يا عثمان.. وها هو يتمرد..!

وناله من والده عتاب لن ينساه أبداً، وناله منه هجر ولكنها كانت تفيض حناناً وعذوبة... يوم علق والده اللوحة، نظرت إليه وكأنها تريد أن تنسى ما حدث وأن يتعهد لها أن لا

يعود لمثله... رجاها يومها أن تحدّثه بشيء، ولم تزد على تلك الجملة الغامضة: غداً تصبح أباً يا إسماعيل!. ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ فشل أن يسمع شيئاً رغم اهتزازات شفتيها... أشفق أن يقطع عليها حديثها الصامت، لكنه خشي أن يتراجع، أن يغزوه شيء يقعد به، أن يداهمه ما يمنعه.. شعر أنه لص يتخفى من شرطي هناك يوشك أن يقبض عليه، تراخت يدها في انكسار، حوّلت وجهها بعيداً عن الجدار.. واستأنف هو السير بها.. حرص على أن لا يحركها بعنف وهو يجتاز بها ذلك السلّم المتصدع، فوجئ بها تتمسك به بقوة وكأنها تحذره الخطوة القادمة: يا إلهي.. ألا زالت تذكر ذلك الركن المتصدع! أحنت رأسها تتفادى الاصطدام بفروع من شجرة العنب المتسلقة التي تحتضن الباب الأمامي كوليد تهدهده أمه، لكنها عادت إلى الخلف بعد أن تجاوزها، لم تملك أن تعود بجسمها، فعادت إليها بعنقها وأحنت رأسها في امتنان، كأنها تودع رفيق درب طويل تخجل أن تنفلت من أمامه دون كلمة وفاء! خطر له أنها تشكوه إلى تلك الشجرة الخضراء.. تدارك هواجسه سريعاً، إنها تودعه فقط.

أجلسها برفق ثم عدل ملابسها، تسللت خصلات شعرها الأبيض كراية استسلام يرفعها جيش منهزم مثقل بالجراح:

أينقصك شيء يا أماه؟

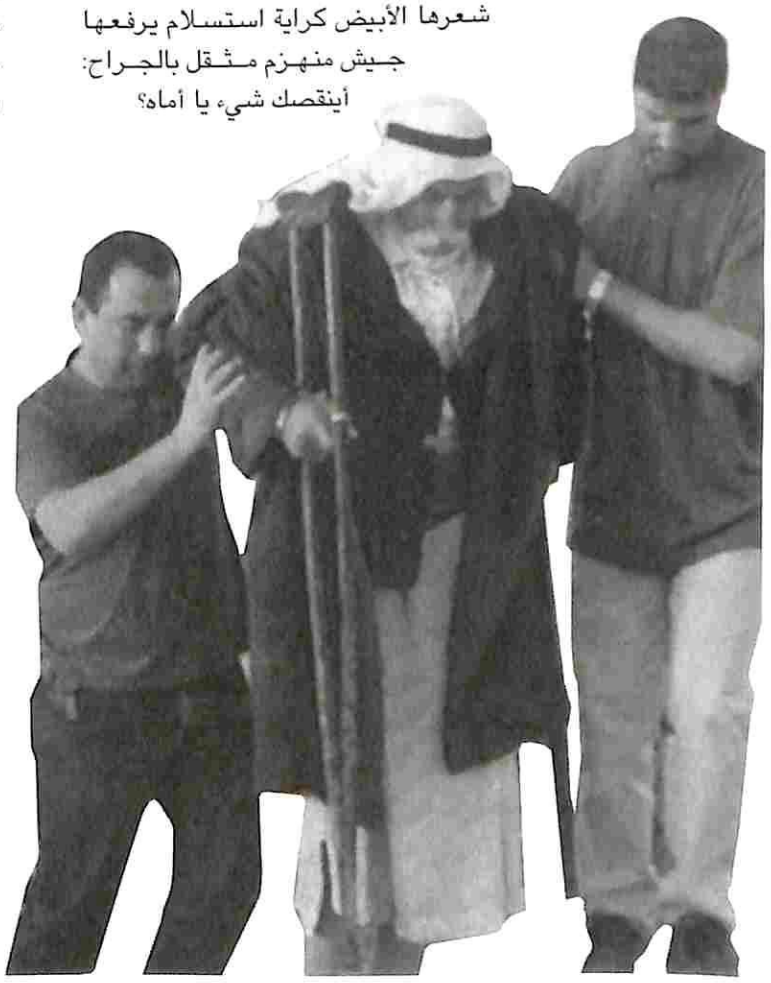

ولم تتكلم حوّلت بصرها بعيداً عنه، صرخت أعماقه، أُسقط في يده: لماذا لا تريد أن تنظر إلي؟.. لماذا لم تجبني؟ يا إلهي أهي غاضبة؟ وكتم صرخته سريعاً وسيطر على ذعره:- إنها لا ترى، كيف أريدها أن تراني؟

كان قد جلس خلف المقود واستعد للانطلاق حين وقفت تلك القطة الذهبية اللون أمام السيارة وأخذت تموء، وحرك يده من وراء الزجاج يطالبها بالابتعاد وعلا مواؤها الحزين، ومع ارتفاع صوت المواء أخذت عصبيته وحركة يده المنفعلة تغدو أكثر وضوحاً.. هدّد وتوعد، لكنها لم تبال ولم تهرب بل بقيت في مكانها تموء بصوت مرتفع وتنظر إليه حانقة مغيظة وكأنه اختطف وليداً لها .. فكر أن يترجل فيركلها بعيداً، نظراتها كانت تتقد شرّاً، نظر حوله يبحث عن شيء يقذفها به أو يقذفه لها، حانت منه التفاتة إليها وهي جالسة خلفه.. رآها صامتة، غير أن وجهها اكتسى بشيء من الاهتمام، جاءه صوتها: لا تؤذها.. جاءت لتوديعي! وتوقف عقله عن التفكير لحظة.. من؟ تلفت حائراً.. لقد ظن القادم إنساناً فلم ير أحداً عاد إليها ببصره متسائلاً فيما أخذت القطة تحاول القفز واقتحام النافذة شبه المفتوحة.. رأى الامتنان والشكر قد ظهرا على وجهها وهي تتجه بوجهها ناحية القطة.. تفرس في ملامح القطة لحظة ثم أسرع يقذف إليها بقطعة خبز، بقايا فطيرة كانت زوجته قد أعدتها له في الصباح ولم تتحرك القطة، لم تعره أي اهتمام، التفت هو إلى ما ألقاه إليها مذهولاً لقد ساوره شك أنه ربما ألقى إليها بشيء آخر.. يا لك من قطة بلهاء.. إنها فطيرة لحم مشوي ندم أنه ألقاها فلوثتها قاذورات الطريق، نظر إلى القطة ناقماً، فتح الباب في عصبية، ترجل، سار إليها، هم أن يركلها بمقدمة حذائه السميك فتطير في الهواء.. أليس ذلك أفضل من أن تنقش عجلات السيارة آثارها على ذلك الفرو الجميل!

قفزت في وجهه متنمرة.. تلقائياً تراجع إلى الخلف، سمع هاتفاً يهتف به يا لك من جبان أتخاف القطة؟ وأسرع يجيب: ليس الخوف من القطة.. إنها المفاجأة.

تعثرت قدمه وهو يتراجع.. ذلك التآكل في الرصيف.. لقد كان دوماً يحذره حين يسير.. ها هو أخيراً يرتطم به.. شيء ما صدمه.. لم ير نفسه إلا هكذا.. ملقى في عرض الطريق، جال ببصره، كان عالماً غريباً وكانت نظراته تضعف شيئاً فشيئاً حتى لكأنه ينظر من وراء حجب سميكة من الضباب الكثيف والظلام المتشابك، أخذته رجفة وهو يرى نفسه في المقعد الخلفي.. أهذا أنا؟ أتلك سيارتي الحمراء؟ بلى إنها هي نفس رائحة العطر الذي يملؤها.. نفس ملمس المقاعد.. نعم سيارتي ولكن.. من هذا الجالس في المقعد الأمامي إنه أنا دوماً من يجلس خلف المقود.. لماذا أنا هنا في المقعد الخلفي؟.

حدّق في وجه السائق بعدائية شديدة وعمق أشد، عاد يتفرس في ملامح الجالس في المقعد الخلفي، أخذ يتأمله، بعض الراحة سرت في كيانه وهو يقول لنفسه: نعم لست أنا.. إنه شخص يشبهني وكم يتشابه البشر! لدغه الفزع كالأفعى فانتفض: كلا.. بل أنا.. عيناي.. بشرتي.. شعري.. ثم تلك الندبة على الجبين.. لا يمكن أن يشبهني أحد في تلك الندبة! حين تأكد لديه أنه يجلس في المقعد الخلفي أخذه الرعب، رعشة الخوف بدت في حركة يده، رأى نفسه كتلة من المشاعر والأحاسيس المقهورة الصامتة.. كيانه هش.. انطفأت حيويته، تبددت قواه.. عيناه فقط تتحركان في انهزام وبطء فتحطان بالنظرات هنا تارة، وهناك أخرى، حاول أن يمد يده، أن يلمس هذا الجالس على المقعد الأمامي أن يسأله فقط كيف لم يستأذن منه قبل أن يقود سيارته؟ أخذته الثورة والحدة للحظة، أراد أن يقذف به خارج السيارة، شعر بالوهن والضعف يقيده بقوة.. قنع فقط بلمسه وسؤاله، همس لنفسه مواسياً: حين يعتذر لي سأقبل فوراً.. سأنتقل إلى المقود شاكراً له وممتناً.

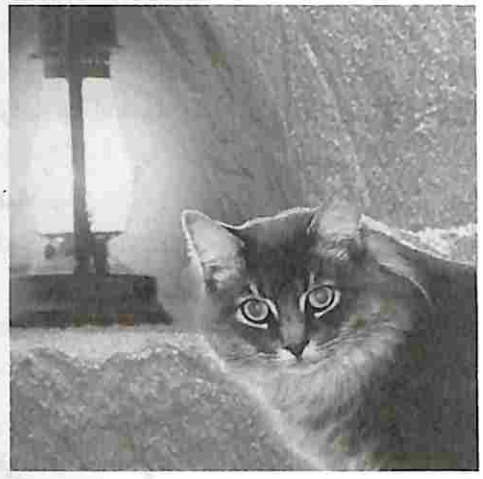

لكن السائق لم يتحرك.. كان يدير ظهره في جمود ولا مبالاة، عيناه مثبتتان على الطريق في إصرار.. اخترقت نظراته نوافذ السيارة إلى الفضاء.. الأشجار تنفلت هاربة فلا يكاد يمسك من رسمها شيئاً، الأشخاص يمرّون في لمحات خاطفة فلا يراهم إلا وقد ابتعد عنهم وابتعدوا عنه.. أخذ الهواء المندفع يصفع وجهه ببرودة جمدت أوصاله، حاول أن يتذكر، أجهد نفسه كثيراً بالبحث بين الخيالات الهاربة الراكضة ..، ومن قاع الذاكرة الموغلة في البعد كأن مداها لا قرار له.. بدأت الطريق تتكشف أمامه، نفس المنعطفات، نفس الالتواءات.. نعم هذه حديقة، ستتلوها بناية بيضاء، هناك محل لبيع الزهور.. أجل هاهو.. ، ثم تلك الأضواء البراقة.. ، وتسمرت عيناه على اللافتة البيضاء.. بدت له شديدة الكآبة، ومادت به الأرض وباغته زلزال، تحطمت مقاومته، تداعت جدران، وتهاوت أعمدة، تساقطت صخور وأحجار، تهشم زجاج .. . وثار في داخله ضجيج، انطلقت استغاثة مكتومة لم يقدر على الإفراج عنها.. . شعر بروحه كطائر يهوي جريحاً من عنان السماء يستغيث بأهل الأرض أن يمدّوا له يداً حانية ليسقط عليها حتى لا تدق عظامه، بعينين فزعتين أخذ يقفز بين الوجوه، قد يفهمه أحد.. قد ينقذه أحد! .

قد تمتد إليه يد حانية فيسقط عليها كذلك الطائر الجريح.. لماذا لم يسمع صراخه أحد؟ لماذا لم يسرع لنجدته أحد؟ اختفى وجهه خلف دموعه الساخنة المتدفقة التي شقت على خديه أثراً كأثر الاحتراق.. واستسلم تماماً.. هناك في نفسه شيء يخمد، وشمعة تنطفئ، وشعر بلسعة برد شديد، ونفق طويل مظلم يسير فيه وحيداً دون سند.. . تراخت أطرافه، نظر بجهد شديد.. كم هو هش.. كم هو ضعيف! .

داهمه خوف وتلك الذراعان القويتان تحيطان به، قد يتهشم، قد تتحطم عظامه!، شعر بقبضة ضعيفة ناحلة تتمسك بمعصمه، نفس البرودة التي سرت في عروقه يوم رجته أن يتمهل بها قبل الرحيل! . كان ذلك من ثلاثين عاماً مضت .. أكانت تلك القبضة الواهنة.. قبضتي أم قبضتها..؟ اختلطت في رأسه المعالم.. تداخلت الأزمنة.. أسافر عبر الزمن أم عاد الزمن إليه؟ كان قد اقترب من اللافتة، ولا زال ذلك الشخص يحمله، نفس الزهور حولها عصافير تقف، تحط، تنقر الأرض لكن منظرها يجلب إلى نفسه الانقباض، تنبه أن العصافير دوماً تغني، تزقزق، لكنها صامتة تماماً كأنها لا تشعر، ولا تبتهج بالحياة، تعجب من أمر نفسه، لم يكن شاعرياً من قبل، فلمَ يتساءل الآن عن غناء الطيور؟

كان يحملها بين ذراعيه صامتة لا تتكلم، مستسلمة لا تعترض، دلف بها إلى الداخل عاهدها بالزيارة كل أسبوع، أقسم لها على ذلك، قَبّل يديها، رجاها أن تدعو له ثم أسرع يغادر.

نعم.. لم يحافظ على قسمه إلا بضع مرات، حمل لها في كل مرة زهوراً من ذلك المحل المتلألئ الصاخب بالألوان والألحان، ثم نسي أمرها تماماً، تشاغل أولاً.. ثم انشغل وتجاهل.. لا فرق الآن..

ودق الهاتف، جاءه صوت بارد بلا حياة: هنا دار العجزة.. والدتك في إغماءة الموت" ابتلع ريقه الجاف.. أعاد النظر إلى اللافتة من جديد "دار الحنان للعجزة" تمتم لنفسه: هنا ألقاها من قبل، ترى من الآن يلقيه؟.

وأراد أن يعرف من السائق؟ من الذي يحمله؟ ووسط الصمت، أكب الشاب على رأسه يقبله، وعلى يده يحتضنها في حنان ثم همس له : أقسم لك يا أبي لن أنشغل عنك، سآتيك كل أسبوع!! وهم أن يتحدث، أن يرجو، أن يستعطف لكنّ شفتيه انطبقتا ورفضتا الانصياع له، وانغلق فمه على جملة واحدة: أرجوك يا ولدي... فقط لا تحضر لي الزهور. ■